تنظيم غولن الإرهابي
سماته العامة ونظامه اللاهوتي

مصطفى أوزترك*

ملخص: إن تنظيم فتح الله غولن الإرهابي لم ينتج حتى الآن سوى الفتنة، فقد اختار في خطاباته مفاهيم ليّنةً، وقدّم نفسه بصفته تنظيماً تطوعيًّا تعليميًّا سلميًّا، لكنه تبنّى فكرة "الغاية تبرّر الوسيلة"، ولجأ إلى تطبيق التنويم الإيحائي على متابعيه بهذيان، من قبيل أنه يلقى الله تعالى ويكلّمه. من جانب آخر امتثل في بنية تنظيمه مفاهيم شيعية كالتَّقِية والعصمة والإمامة والمهدية. كما تبنّى مفاهيم الواردات والرؤى والإلهامات الموجودة في تقليد التصوف الذي طالما نأى بنفسه عنه، واتخذ مبدأ "الإنسان بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله" أساسًا في ممارساته وتطبيقاته، وطوّر في مجال بناء تنظيمه أسلوبًا يناسب البنية السرية الهرمية.

* جامعة تشكورأوفا، تركيا

Gülen Terrorist Group: General Features and Theological System

Mustafa Öztürk*

ABSTRACT This study tries to discuss the roles of the FETÖ terrorist group from its establishment inside the Turkish community. Despite of the mild-spoken language used by the group's leaders within the latest years and the peaceful, educational, and voluntary approach they claimed, they had embraced the idea of "the ends justify the means," as they practiced what is known by hypnotherapist on their followers promising them they will meet Allah and speak with him soon. Additionally: the group resorted to many of the Shia-related concepts in order to carry out its own agendas within the Turkish institutions, hence its leaders had also imported concepts of visions and inspirations existed in Sufism.

*Çukurova University, Turkey

رؤية تركية
2016 - (5/3)
110 - 91

المدخل

عند إمعان النظر في بنية تنظيم (فتو) الإرهابي الذي أسسه فتح الله غولن في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي متخذا أسماءً مختلفة، مثل "الجماعة" و"الجامعة" و"جماعة غولن" و"حركة الخدمة"- يظهر أن هذا التنظيم لا يمكن عدُّه جماعةً دينيةً، ولا مؤسسة مدنية؛ لأنه لا يشبه مؤسسات المجتمع المدني. ولا بد في هذا السياق من القول إنها المرة الأولى التي يمرّ فيها التنظيم منذ تأسيسه بتطورٍ مهمّ، ويمكن الحديث عن بضع مراحل حرجةٍ في هذا التطور.

إن فترة 1970-1983 هي -بحسب م. حسن ياوُز- فترة تشكُّل تنظيم غولن، وإن فترة 1983-1997 هي فترة تطوره وانتشاره في الساحة التركية، وفترة 28 شباط 1997 المعروف "بانقلاب ما بعد الحداثة" وما يليه من السنوات هي فترة التحول الليبرالي القسري والتحول الكولونيالي (الاستعماري) للتنظيم في مؤسسات الدولة الحساسة، وتأتي عملية 17/ 25 كانون الأول 2013 وانقلاب 15 تموز 2016 على وجه الخصوص بمثابة الفترة التي أزالت القناع عن وجهه، وظهر على حقيقته بكونه تنظيمًا إرهابيًّا.

يمكن وصف حركة غولن من الناحية البنيوية بأنه تحالفٌ مكونٌ من عناصر اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية. وأنتجت الشروط المتغيرة مع الزمن إعادة هيكلة هذه العناصر، ودفعت بالتنظيم إلى تشكيل تحالفات جديدة. وعلى الرغم من أن بنية نواة الحركة وما يتبناه غولن من مفهوم "الفرد المثالي" (الجيلَ الذهبي) بقيا على حالهما إلى حدّ كبير؛ إلا أن الخطاب المجتمعي والمشروعات المجتمعية تعرضا لتغييراتٍ كبيرة.

وفي هذه النقطة يمكن الحديث عن اتخاذ الحركة وضعًا يمكن التعبير عنه بمفهوم "اغتنام الفرص" و/ أو "الانتهازية"، وما تقوم به الحركة من إعادة هيكلة نفسها، وإعادة تعريف نفسها باستمرار- له علاقةٌ بالعثور على أدوات تناسب الفرص التي تظهر في تركيا والعالم. وإنّ استعمال هذه الأدوات بصورة فعالة. والتحولات والتغيرات الراديكالية التي رُصدت في خطابات غولن، أو في سير الحركة التي يديرها بنفسه على حدٍّ سواء- لها علاقةٌ قريبةٌ أيضًا بإستراتيجية ما يُسمَّى بالتدبير (التقية) الخالية من المبادئ والأخلاق.

الخصائص الشخصية لتنظيم (فتو) الإرهابي:

تملك حركة غولن (تنظيم فتو الإرهابي) بنيةً مكونةً من سبع طبقاتٍ -بحسب البنية الهرمية التي رسمها أ. د. أحمد كلش الذي كان عضوًا في هذه الحركة حتى انفصاله عنها في نهاية التسعينيات- يتربع في الطبقة السابعة فتح الله غولن باعتباره السلطة المطلقة العليا، ومن يعينه من كوادر الأركان العليا، وتتبوّأ الطبقة السادسة النُّخَب التي تحقّق التواصل بين غولن والطبقات السفلية، وتُعنَى في الوقت ذاته بمسائل مثل تغيير المهامّ وأمور العزل، وتضمّ الطبقة الخامسة أشخاصًا لا يعرفون بعضهم إلا قليلًا، لكنهم مسؤولون عن تنظيم بنية الحركة في مفاصل الدولة، وتتكون الطبقة الرابعة من الأشخاص المسؤولين عن مراقبة الخدمات، وتتكون الطبقة الثالثة من الإخوة الكبار [آبي]، ووظيفتهم تسيير فعاليات الإرشاد، إضافةً

إلى المسـؤولين عن البيـوت التي افتتحوها في المناطق والمدن والبلـدات، وتتكون الطبقة الثانية من أشـخاص يعملون في مجالات مختلفة، مثل المدارس والمعاهد ومساكن الطلاب والأوقاف والجرائـد والمجلات، أمـا الطبقةُ الأولى الأخيرة وهي الطبقة السـفلى ففيها كتـلٌ مرتبطةٌ قلبيًّا بالحركة، وتتحمل في الوقت نفسه أعباء الحركة الثقيلة.

إنّ مـا يُعرَف عمومًـا بفعاليات "الخدمة" تقـوم بها الكوادر المتمركـزة في الطبقات الثلاث الأولى من البنية الهرمية، ولا يهمّ هذه الطبقات أمرٌ سوى استعمال القيم والإمكانات المتولدة في الطبقات السفلية من أجل مشروعات التنظيم. من هنا يمكن القول إن هناك اختلافات جادةً بين نيّات الطبقات السـفلية وأهدافهـا، وبين نيّات الطبقات العليـا وأهدافها. بقي أن المراجع والحوافـز الدينيـة نافذةٌ لدى الطبقات السـفلية وحدها عـلى نطاق كبير، فعندمـا يكون تأمين موارد بشريةٍ جديدة للحركة، أو اسـتعمال الموارد البشرية الموجودة فيها بشـكلٍ مثمر وفعالٍ- موضوعَ الحديث؛ لا بد من اللجوء إلى الدِّين واستعمال الدين والمراجع الدينية لجعل الناس في الطبقة السفلى يؤمنون أنهم يقومون بأعمالٍ عُلويةٍ كالعبادة أو الجهاد في سبيل الله.

ظهـرت حركة غولن بوصفها امتـدادًا لحركة جماعة النور الدينيـة المعروفة وفكرها، لكنها سرعان ما اكتسـبت هويةً مسـتقلةً عن حركة جماعة النور التقليديـة، فباتت تعرض في وجهها الخارجي مظهـرًا عصريًّا معتدلًا ليبراليًّـا عالميًّا، وتبدي للداخل مظهرًا سـكولانيًّا [1] . ويمكن الاستشـهاد عـلى شـخصية الحركة المحافظة السـكولانيةبأدلة كثيـرة، منها؛ أولويـة المجتمع/ الجماعـة عـلى الفرد في كل مـكان وزمان، ورفـض جميع الأفـكار الانتقاديـة في الحركة، وعدم السماح بتاتًا للآراء المعارضة، وترسيخ الطاعة المطلقة.

1. تطلق عادةً على فلسفة المدارس الكاتدرائية في العصر الوسيط. وهي التي حاولت المزج بين العقائد المسيحية وعناصر الفلسفة الإغريقية عند سقراط وأرسطو باستخدام القياس المنطقي والجدل.م.

ظهرت حركة غولن بوصفها امتدادًا لحركة جماعة النور الدينية المعروفة وفكرها، لكنها سرعان ما اكتسبت هوية مستقلة عن حركة جماعة النور التقليدية، فباتت تعرض في وجهها الخارجي مظهرًا عصريًا معتدلًا ليبراليًا عالميًا.

رغم أن الحركة بقيت على مسافة من وظيفة التصوف- الطريقة المعروفة بموجب دستور "الزمان زمانُ حفظِ الإيمان لا حفظ الطريقة" المنسوب إلى سعيد النورسي؛ فقد وُقف عند كرامات الشخص الذي يتربّع مقام المرشد في علاقة المرشد- المريد في التصوف على وجه الخصوص بدل التركيز على وصف الكمال، ولُجِئَ إلى الخرافات والمناقب العصرية وإخراجها بلبوس الكرامات؛ لبيان تفوق الحركة على سائر الجماعات والحركات الدينية. وفي هذا السياق تُلَفَّق حكاياتٌ من قبيل حضور الرسول عليه الصلاة والسلام الأولمبياد التركية، وزيارة سيدتنا خديجة بيوت إشق لتقوم بوظيفة تعزيز ارتباط الكتلة الواسعة في الطبقات الدنيا بغولن.

تبدو حركة غولن في المجال الديني كأنها تمثل الفهم التقليدي والمحافظ جدًّا، لكنّ هذا الفهم الذي يبدي طاعةً قصوى للتقليد، وينظر ببرود إلى التجديد في الفكر الديني؛ نراه يتبنى نمطًا من الفهم الذي يمكن وصفه "بالمذهبية الواسعة" عندما يكون الحوارُ بين الأديان موضوعَ الحديث. ففي رسالته المشهورة التي قدّمها للبابا جون بول الثاني عام 1998 يقول غولن:

"صاحب جناب البابا المحترم: أتيت إليكم وفي جعبتي أحرّ التحيات من شعبنا الذي يدرك تمامًا مهمتنا المقدّسة في جعل الأراضي المعروفة بمهد الأديان الثلاثة الكبيرة مكانًا أفضل للعيش. أقدّم لذاتكم العليّة أعمق الشكر لأنكم شرّفتمونا بأن خصّصتم لنا شيئًا من وقتكم الثمين المزدحم بجدول الأعمال. نجتمع اليوم هنا لنكون جزءًا من مهمّة المجلس البابوي من أجل الحوار بين الأديان الذي أطلقه حضرة البابا بولس السادس، والذي لا يزال مستمرًّا. نرجو أن تتحقق هذه المهمّة. وقد جئنا إليكم بكثيرٍ من العجز وقليلٍ من الجرأة؛ لنقدم لكم أكثر خدماتنا تواضعًا، في سبيل القيام بخدمتكم القيّمة هذه".

وفي كتابه المتعلق بالحوار بين الأديان يقول غولن: "لابدّ من زيادة الفصول المشتركة مع الناس الذين نتحاور معهم، والحديث عنها، يجب علينا التحرك بهذا الفكر ولو كان الناس الذين نلقاهم ونتحدث معهم يهودًا أو نصارى، وأن لا نجعل المسائل التي من شأنها أن تفرقنا بشكل مؤقت موضوع البحث، مثلًا إن لم تتفاهموا معهم في موضوع الله والآخرة فلا جدوى من التحدث عن نبينا... أي أن الأساس يجب أن يكون في العثور على نبض كل واحدٍ، وإعطائه الشربات تبعًا لنبضه".

هذه الكلمات تشير إلى أن غولن لديه مهمةٌ تمامًا مثل مهمّة بولس، لا بل هو مستعدّ لأن يكون بولس الإسلام عن علم ورغبة، ففي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يقول بولس: "إِنِّي إِذْ كُنْتُ حُرًّا مِنَ الْجَمِيعِ، اسْتَعْبَدْتُ نَفْسِي لِلْجَمِيعِ؛ لأَرْبَحَ الأَكْثَرِينَ، فَصِرْتُ لِلْيَهُودِ

كَيَهُـودِيٍّ؛ لأَرْبَـحَ الْيَهُـودَ. وَلِلَّذِيـنَ تَحْتَ النَّامُـوسِ كَأَنِّي تَحْـتَ النَّامُوسِ؛ لأَرْبَـحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، وَلِلَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ كَأَنِّي بِلاَ نَامُوسٍ¬ مَعَ أَنِّي لَسْتُ بِلاَ نَامُوسٍ للهِ، بَلْ تَحْتَ نَامُوسٍ لِلْمَسِيحِ؛¬ لأَرْبَـحَ الَّذِينَ بِـلاَ نَامُوسٍ. صِرْتُ لِلضُّعَفَـاءِ كَضَعِيفٍ؛ لأَرْبَـحَ الضُّعَفَاءَ. صِرْتُ لِلْـكُلِّ كُلَّ شَيْءٍ؛ لأُخَلِّـصَ عَـلَى كُلِّ حَالٍ قَوْمًا. وَهذَا أَنَا أَفْعَلُهُ لأَجْـلِ الإِنْجِيلِ؛ لأَكُونَ شَرِيكًا فِيهِ".

مـا من شـك أن المفاهيـم والقيم والرموز الدينية لهـا مكانةٌ مهمّةٌ جـدًّا في حركة غولن من الناحيـة النظريـةً والبلاغيـة، لكـن الوضع مختلـفٌ جدًّا فيـما يخص مكانـة الممارسـات الدينية ووظيفتها. فهناك -كما هو معلومٌ- قولٌ مشهورٌ أطلقه كارل ماركس: "الدين أفيون الشعوب". هذا القول يُستعمل عمومًا لبيان أن عنصر الدين هو الأداة التي تمنع شريحةً واسـعةً من الناس مـن مقاومـة الظلم والكفاح والنضال من أجل نيل الحقـوق، وتجدي في الحفاظ على الأوضاع الراهنـة، هـذا الفهم الشـائع الذي يبـدو مفتوحًا للنقـاش والجدل، وقـول ماركس من حيث الاسـتعمال- ينطبقان إلى حدٍّ كبير على التصور الديني السـائد لدى حركة غولن التي تتشابه في نقاط عدة مع الفرقة الإسلامية-الباطنية التي تُذكر أيضًا في تاريخ المذاهب الإسلامية بأسماء، مثل الحشّاشين أو الحشيشية والفدائية والملاحدة.

يسـتعمل غولن الديـن والمفاهيم الدينية قبل كل شيءٍ أداةً لسـحره، ويصيغ تاريخ الأنبياء والسـيرة النبويـة كأنهـا حكايته، وهـذه الصياغة تضـع غولن موضـع النبـي، وأتباعه موضع الصحابـة. والعبارة التي قالها غولن: "مجموعة القدسـيين الثانيـة" يكفي لإثبات هذا الموضوع الذي نتحدث عنه، كما يستند غولن إلى روايةٍ ضعيفةٍ أو موضوعة أن رسول الله قال: "سيظهر في آخر الزمان من أمتي قدّيسـون، سيجتمعون بي عند حوض الكوثر" ليلقّن أتباعه العبارات الآتية التي يتضمنها النصّ المنشور على صفحة الويب herkul.org:

"أيها القُدسـيُّون! هـل تعلمون أن طير السـعادة قد حطَّ تاجًا على رؤوسـكم منذ عصر السـعادة؟ إنكـم أنتم المبشَّرون من قبل سـيد الكونـين، وأنتم آخر من تمثلون القدسـية في هذا العالم، وأنتم مكلّفون بهذه المهمّة العظيمة. أيها القدسيون المصطفون: هل تؤمنون بأن الرسول ذا الشـأن يمسـح على رؤوسـكم ويدلك ظهوركم كل ليلة؟ هل تصدّقونني إن قلت لكم إنه (صلى الله عليه وسلّم) يحفظكم من الآثام والذنوب؟ هل تصدّقون لو قلت لكم: إنكم شعب عصر السعادة الثاني المختار؟".

يجب أن لا نتجاهل أن كلمة "القُدسيين" التي وردت في كلمة غولن تأتي بمعنى "الصحابة" في العـصر الحديـث، ومن ثَمّ فإن غولـن يمثل نبي الله وأتباعه يمثّلون أصحاب رسـول الله في الموقع والوظيفة. ولا يغيب عن الأنظار تشديد غولن على استعمال كلمة "المختار" و"العصمة والمعصوميـة"؛ أي الحفـظ مـن ارتـكاب المعـاصي. يمكننا أن نذكـر عددًا لا يحـصى من الأدلة والقرائـن بخصـوص هـذا الاكتشـاف. وإحدى هـذه الأدلة الكلـمات التي تحـدث بها غولن بعنوان 'التكرارات التاريخية والأمنيات الطويلة': "إن الذين يستطيعون أن يشاهدوا الأحداث

التـي تجري اليـوم من مراصد القلب والروح... يقومون بالمهمّة التـي كلفتهم بها برامج القدر بـكل تفرعاتها. إنهم يسـيرون، والطرق التي يمشـون عليها تحيّيهم. والعراقيـل القائمة في كل مكانٍ يسـيرون فيه والتي يبدو تخطيها مسـتحيلاً؛ تسجد لهم، وتلقي بنفسها تحت أقدام هؤلاء القدسيين، وتغدو هذه الطرق سويةً قويمة ممهدة لا ترى فيها حائلًا ولا مانعًا...".

إن الله –حسب هذه العبارات– قد اختار واصطفى غولن وجماعته من أجل وظيفةٍ عُلوية لهـذا يرى غولن وأعوانه أنفسـهم أنهم "شـعب الله المختار وأحباؤه"، تمامًـا مثلما يدّعي اليهود أنهـم أبناء الله وأحباؤه. وتكوين ثقافة الشـخص المقدَّس يمكن تقييمـه على أنه الخطوة الأولى في طريـق بناء تصـورات ودعاوى "الاختيـار والاصطفاء". فيتم في هذا العصر إنتاج سلسـلة مـن الحكايات الملفّقة (المناقب)، وتُحوَّل "الشـخصية المركزيـة" المنمّقة بهذه الحكايات إلى بؤرة الدين. ويُنتَج لغولن سـجلٌّ لنَسَـب مبارك، كلُّ أفراده أولياء، ويُزيَّن هذا النَّسَـب بالخرافات والمناقب، وهذه الأمور بالتأكيد لها مكانةٌ مهمّةٌ في تقديم نفسه بأنه الشخص المختار. والمناقب التـي يتحـدث بها غولن عن نفسـه على لسـان كبـار الأسرة مثـل الآباء والأمهـات والأجداد والجدّات مثيرةٌ للغاية.

مـن جهـةٍ أخرى حُوِّلَ نبيّ الله وأهـل بيته إلى أدوار صامتة، لا تتكلـم كثيرًا في حملة تعظيم غولـن وتبجيله. فبعض الناس –بحسـب سـجلات النَّسَـب الملفّقة– فرّوا مـن ظلم الأمويين والعباسـيين ولجؤوا إلى أخلاد التابعة لولاية بدليس اليوم، وأن أجداد غولن كانوا بين أولئك الفارّيـن. وانطلاقًـا من هنـا يزعم غولن أنه من أهـل البيت من طرف أمه وأبيه، لكن شـجرة النسـب هـذه ضاعت لحكمـة ما. وغولـن بمزاعمه هـذه يذكرنـا في الواقع بمؤسـس الحركة

القاديانية ميرزا غلام أحمد (ت. 1908م) الذي زعم في البداية أنه "سيّد" ثم "مجدّد"، ثم أعلن نفسه فيما بعد "المهديَّ" الذي يمثل روح سيدنا محمّد و"المسيح" الذي يمثل روح سيدنا عيسى. وهكذا يزعم غولن -تمامًا مثل مزاعم غلام- في نزول الوحي إليه وتعرضه للإلهام الإلهي، فهو يلقى الله ورسوله، ويتكلّم معهما، وأن كل ما يفعله مصدّقٌ من قبل رسول الله.

إلى جانب هذا كله، زعم غولن أنه مصانٌ محفوظٌ من الله تعالى منذ طفولته، ونسج حكاية العصمة لنفسه انطلاقًا من بعض الروايات التي تخصّ حياة رسول الله قبل النبوة. تقول هذه الحكاية على لسان غولن ذاته:

لم أذهب إلى حفلات الزفاف إلا مرتين في حياتي. كنت صغير السن، أنظر إلى رجال يشربون ويرقصون في العرس، فجاءني سكران وصفعني على وجهي قائلًا: "ماذا تفعل هنا؟". فعدت إلى المنزل خجلًا متألمًا. في المرة الثانية التي ذهبت فيها إلى حفل الزفاف كنت طالبًا، وعند عودتي إلى البيت طرقت الباب ساعات دون أن يسمعني أحد. فمكثت أنتظر أمام البيت تحت الثلج حتى الصباح مع أن والدي كان نومه خفيفًا جدًّا يسمع صوت أدنى حركةٍ في الخارج، لكنه لم يسمع طرق الباب. كنت على وشك الموت من البرد في ذلك اليوم. نلت عقابي سريعًا في كلتا المرتين اللتين ذهبت فيهما إلى العرس.

إن وهْمَ الاصطفاء هذا يفضي إلى مشكلات دينيةٍ وأخلاقيةٍ عديدة، فهذا الوهم بدايةً لا يتيح لغولن وأعوانه أن يقولوا: "نحن أيضًا ارتكبنا خطيئة"، لهذا كان غولن يجيب عن سؤالٍ من مثل "هل يمكن عطف صفة العصمة إلى أشخاص غير الأنبياء؟" بنقل الرأي المعروف بين الناس على الشكل الآتي: "معظم الناس يرون أنه لا أَحد معصومٌ من الخطأ غير الأنبياء"، لكنه يضيف قائلًا: "هنا يجب لفت الانتباه إلى هذا الأمر: إن القول بأن الإنسان يمكنه أن يرتكب إثمًا أو خطيئةً من الناحية الافتراضية والتقديرية لا يعني أنه ارتكب إثمًا بالفعل، ومن ثَمّ يمكننا القول: إن الزعماء والقادة الدينيين الذين من شأنهم أن يكونوا قدوات وأئمةً للناس من غير الأنبياء يحفظهم الله تعالى. وهذا ليس له علاقةٌ بفكرة 'الإمام المعصوم' التي يتبناها الشيعة لا من قريب ولا من بعيد. فعندما يُسأل سؤالٌ على غرار: 'هل يمكن أن يرتكب الإمام الرباني إثمًا؟' على سبيل المثال نجيب جميعًا: 'أجل يمكنه أن يرتكب إثمًا' لأنه ليس نبيًّا، ويُفترض أن بإمكانه فعل ذلك، ولكن تُرى هل ارتكب الإمام الرباني إثمًا في حياته؟ الجواب على هذا السؤال لن يكون ذاك الجواب الذي ورد أعلاه؛ لأنه لا أحد قادرٌ على إثبات أن الإمام الرباني قد ارتكب حتى صغائر الذنوب، فلديه القدرة والقابلية لارتكاب المعاصي، لكن هذا لا يعني أنه ارتكب إثمًا أو معصية. وبهذا المعنى يحفظ الله تعالى الأولياء والأصفياء والمقرّبين فيحول دون ارتكابهم المعاصي والآثام".

يبدو أن غولن بهذه العبارات يزعم أنه هو الآخر معصوم من ارتكاب المعاصي، لكنه بيّن ذلك بطريقة ملتوية غير مباشرة، بدلًا من قول ذلك علنًا. فما ورد على لسان غولن باختصار هي مزاعم "العصمة"، لكنه عند تقييم أعماله التي قام بها خلال السنوات الأربعين الأخيرة من

حيث القيم الإسلامية والضوابط الأخلاقية يتضح أنه معصوم من الثواب لا مِن الإثم. يقول أحد الكتاب من أتباع حركة غولن: "إن الخطأ ليس موضوع الحديث لدى غولن وحركته إلا في الاجتهاد والترجيح. بقي أن في هذا الخطأ ثوابًا لا إثمًا لو طغى عليه الإخلاص وحسن النية".

يلجأ غولن إلى الحديث عن سيرة النبي وأصحابه وتفسيرها بما يوافق هواه وهوى أتباعه المتعاطفين معه في سبيل تحويلهم إلى ما يشبه جيش الفدائيين الحشّاشين الذين يملكون إيمانًا راسخًا، ويبدون طاعةً مطلقةً لقائدهم. ويلجأ كذلك إلى هذه الطريقة من أجل بيان أن الأعمال المنحرفة من قبيل بناء الكوادر السرية داخل قنوات الدولة، والقيام بالتنصت والتسجيلات الصوتية والمرئية خفيةً، والتجسس على خصوصيات الناس- مباحةٌ؛ بل ضرورية وإلزامية عند اللزوم. ولو تطلب الأمر إعطاء مثال مثير فيما يخص هذا الأمر يمكننا أن نورد هذه العبارات التي قالها غولن في كتابه الذي كتبه في السيرة النبوية بعنوان 'النور الخالد' في فصلٍ منه تحت عنوان: "الكتمان: التحرك خفيةً من دون أن يُحسّ أحد":

"لقد قال هتلر باسم مهنته العسكرية: "أنا من اكتشفت سر الكتمان". لكن القدماء يقولون: إن الكتمان اكتشفه رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإن الإنسانية عرفت الكتمان بفضله. لم يكن بمقدور أحدٍ أن يعرف أهدافه وإستراتيجياته لا في الهجوم ولا في الدفاع. لم يكن يقول إني ذاهب إلى هنا وهناك قبل أن يقطع شوطًا من الطريق، ولم يكن المشركون ولا جيشه على علم بأهدافه إلى أن يوشك الوصول إلى مكة... نعم لقد بنى رسول الله لنفسه شبكة أنباء، ولم يعطّ لشبكات الأنباء الفرصة والموادّ التي تساعدها في الاطلاع على أسراره، لقد كان يتقن الكتمان. والله تعالى الذي علمه كلّ شيءٍ علمه ذلك قبل 14 قرنًا، وتعرّفت الإنسانية بفضله على الكتمان الحقيقي".

ومن إحدى الخصائص الشخصية لحركة غولن أنها تملك نظامًا تعليميًّا قويًّا. والبرامج التعليمية الأساسية في حركة غولن تهدف جميعًا إلى ترسيخ الولاء والطاعة المطلقة لفتح الله غولن لدى الطلاب وأتباعه على العموم. وتجري الفعاليات التعليمية كلها في إطار هذا الهدف، فتتناول البرامج التعليمية موضوع غولن بكثرة لإقناع الطلاب والشرائح التي انضمت إلى الحركة حديثًا بأن غولن شخصيةٌ مباركةٌ معصومةٌ من الآثام والمعاصي كافة وكأنما هو نبي.

كل طالب ينضم إلى الحركة حديثًا ويبقى في البيوت المعروفة باسم "بيوت إشق" يتعرّف خلال فترةٍ تعليمه على كتب سعيد النورسي ويقرؤها ولو قليلًا، لكن هذه القراءات تُربَط بفتح الله غولن بشكلٍ أو بآخر بحيث لا تخلو من تعظيمه وتبجيله. يركز الطلاب في هذه القراءات على النصوص المكونة من المقالات والكلمات التي كتبها غولن في المجلات، ويتم إقامة مسابقات في إطار هذه القراءات، ومكافأة الطلاب المتفوقين، علاوة على ذلك، تُلقى دروس غولن الوعظية وكلماته على مسامع الطلاب بشكل منتظم. من جهةٍ أخرى تُنقَل وتُنشَر المناقب والكرامات والأحاديث والآيات التي يُعتقد أنها تشير إلى غولن.

يتجوّل أتباع الحركة القدماء تحديدًا في كل أنحاء تركيا باعتبارهم واعظين رحّالين، يتناولون في دروسهم الوعظية الأحداث غير العادية والخارقة للطبيعة [الكرامات] التي عاشوها مع غولن، وبذلك يجد كل من يكون على صلة معهم نفسه وسط منظومة كبيرة من الروايات المعنوية، ويتشكل فريقٌ من أعضاء الحركة المسنين، تعمل باسم فرق "التفتيش" و"الإرشاد"، تتجول في كل أنحاء تركيا، وتحدّث الناس عن مفهوم "الخدمة"، وهناك مجموعةٌ شبيهةٌ موجودةٌ خارج القطر أيضًا، ويُكَافَأ الذين يعملون بجدٍّ في شريحة الطلاب أو في شريحة العوامّ على حدٍّ سواء. وتأتي زيارات الحج والعمرة وهدايا الكتب التي تحمل توقيع غولن مكانها بين المكافآت الأساسية، فضلًا عن أن لقاء غولن وتناول وجبة الفطور أو الجلوس معه على نفس المائدة يُعَدّ مكافأةً كبيرةً جدًّا.

ومن إحدى الخصائص الشخصية لحركة غولن أنها تملك نظامًا تعليميًا قويًا. والبرامج التعليمية الأساسية في حركة غولن تهدف جميعًا إلى ترسيخ الولاء والطاعة المطلقة لفتح الله غولن لدى الطلاب وأتباعه على العموم.

في الوثائقيات التعليمية الخاصة بحركة غولن تحت عنوان "كيف سنعرِّف خوجة أفندي؟" يجري الحديث عن طريقتين: الطريقة الأولى هي التقليد، وتبعًا لهذه الطريقة يعمل المدرس أو المعلم (آبي) قبل كلّ شيءٍ على جعل الطالب يحبه، فيعامله معاملةً فيها رحمةٌ وشفقةٌ أكبر من رحمة الأبوين وشفقتهما.

الطريقة الثانية هي الترغيب في الأفكار، وفي هذه الطريقة يقرأ الطلاب بعضًا من نصوص غولن ويحفظونها عن ظهر غيب. ويجري العمل في هذه المرحلة على خلق الألفة بين الطلاب ونصوص غولن، وتأمين إعجابهم بها، وإثارة فضولهم لمعرفة صاحب هذه النصوص قبل ذكر اسم غولن، ثم يقال للطالب: "صاحب تلك النصوص التي تحبها... هو خوجة غولن أفندي!"، وبذلك تُزرَع محبة غولن في نفوس الطلاب.

الخطوة الأولى في مراحل التعرف على غولن تبدأ من التعرف على جوانبه العلمية، حيث تُطبَّق طريقة غسيل الدماغ على طلاب المرحلة المتوسطة بهذه العبارات التي تلقى على مسامعهم: "خوجة أفندي رجلٌ لديه معلومات وافرة في كل موضوع، نحن لا نعلم سوى بنية الذرة التي تشكل أصغر حجر أساس في بنية المادة، لكنه يتحدث في صحبته ووعظه عن جزئيات أصغر من الذرة، لديه معلومات لا توجد عند البروفيسور". في هذه المرحلة يُتوقَّف عند ضرورة ذكر غولن بصفات الباحث الكبير، والمفكّر الكبير، والشاعر الكبير، أكثر من وصفه بالواعظ أو الخوجة، وفي المراحل اللاحقة يُعرَّف غولن بأنه شخصية منقطعة النظير، بنواحيها العلمية والمعنوية. باختصارٍ يُقدَّم غولن للطلاب على النحو الآتي:

1. لا أحد مثله على وجه الأرض يجيد القراءة والفهم السريع.
2. قرأ جميع المجلات التي تُعْنَى بالثقافة والعلوم والتقنيات في تركيا والعالم الغربي.

3. حفظ عن ظهر غيب موسوعة ميدان لاروس، ولم يجد صعوبةً على الإطلاق في حفظ هذه الموسوعة الضخمة.

4. لديه ذُخرٌ واسعٌ جدًّا من المعلومات في كل مجالٍ على وجه التقريب، فعندما يلاقيه مختصٌّ في الطب يعتقد أنه يعمل في مجال الطب.

5. أمر بتركيب صندوق في مكان اجتماع الناس، وطلب من الجميع كتابة كل أسئلتهم وإلقائها في هذا الصندوق، وأجاب عن جميع هذه الأسئلة من دون أن يلقي نظرةً عليها.

6. أتمّ حفظ القرآن وهو في السادسة من عمره، حيث حفظ كل يوم ثمانية أجزاءٍ (160 صفحة) من القرآن.

7. فوَّت على نفسه مرةً سنة صلاة العشاء وهو في مرحلة الطفولة فبكى ساعتين.

8. رأى رسول الله في منامه كل ليلة وهو طفل.

9. رأى نملةً في المرحاض فبذل مجهودًا لإنقاذها على مدار ساعتين.

10. نظر وهو طفلٌ إلى امرأة في طريق عودته من المدرسة إلى بيته، فدعا الله قائلًا: "اللهم لن أستطيع رؤيتك بوضوح في الآخرة فخذ بصري".

نظامه اللاهوتي

يتضمن جميع كتابات فتح الله غولن وخطاباته عددًا كبيرًا من المراجع العلمية، لكن هذه المراجع استقاها من مذاهب ومدارس وأفكار دينية مختلفة. بمعنىً أوضح، خطابات غولن الدينية مزيجٌ من عناصر، مثل البيعة والطاعة اللتين يتسم بهما التقليد السُّني، والإمامة والمهدية والعصمة الموجودة في تقليد الشيعة، والرؤيا والإلهام اللذين تتسم بهما ثقافة التصوف والباطنية. إن حركة غولن في الواقع ذات شخصية هجينةٍ سواءٌ من الناحية البنيوية أم من حيث طراز خطاباتها الدينية. ويمكن القول بعبارةٍ أخرى إنّ هذه الحركة مهجّنةٌ تمامًا في بنيتها الحالية ونمط فعالياتها، رغم أنها ظهرت بادئ الأمر بمنهج السنة.

خلال الفترة الممتدة من أواخر الستينيات إلى انقلاب 1980 عملت حركة غولن على أن تتغلب على تصوّر الشتات في الوطن الأمّ، وعلى الشعور بالانحصار بين الدين والدولة (النظام العلماني) على حدٍّ سواء، فشعرت بالحاجة إلى اكتساب هوية جديدة ولاسيّما بعد انفتاحها على الخارج، فرجّحت عن علم ورغبة تهجين هويتها وشخصيتها، وتحقق لها ذلك في هذه الفترة. هذا التهجين يمكن التعبير عنه بمفهوم التوفيق بين الأديان (senkretizm)، وذلك بأخذ الرموز والخطابات والصور التي تخصّ ثقافاتٍ مختلفةً وخلطها معًا في قالب ثقافةٍ جديدةٍ، أو مزيج عناصر مختلفةٍ تعود لثقافاتٍ متنوعة.

بالتوازي مع تهجين الهوية والشخصية تهجّنت حركة غولن على الأرضية اللاهوتية أيضًا، وتحققت هذه الواقعة تدريجيًّا حيث التقى غولن البابا جون بول الثاني عام 1998، ثم غادر

تركيا عام 1999، واستقرّ في أمريكا، وحدد للحركة التي يقودها أهدافًا على الصعيد العالمي، وكلما قطعت الحركة أشواطًا على الصعيد العالمي أضعفت اعتبارها للقيم المليّة والمحلية التي تمنح الحركة وجودها، وعطّلت إستراتيجية التطور من خلال إنتاجها لقاحها من نفسها، وبالمقابل عمل جاهدًا في بناء علاقات قريبةٍ مع الثقافات الأجنبية. في غضون ذلك زرعت الجسامة/ الضخامة المتعولمة في غولن وأتباعه فكرة استلام مهمة المسيح (المنقذ الغيبي).

يصوّر غولن نفسه على أنه السلطة الروحانية التي ستُنهي ضائقات الإنسان المادية/ المعنوية، ويحقّق الكمال في الحياة الدينية والاجتماعية، في تصوّر يذكّر بعقيدة المهدي/ المهدية في التقليد الإسلامي. غير أن عقيدة المهدية التي تبنّتها الفرقُ الشيعية المختلفة منذ عصور الإسلام الأولى، وتخللت إلى محيط أهل السنة نتيجة تضييق أهل الحديث والمدارس السلفية– صارت مدارًا للظلم بدل العدل، ومصدرًا للمشكلات بدل الأمن والسكينة، والأسوأ من ذلك أنه برز كثير من الأشخاص الذين يحملون مزاعم المهدية في التاريخ الإسلامي، ووضعوا الحكم السياسي والمستقبل السياسي نصب أعينهم، فأفسدوا النظام الاجتماعي للمسلمين.

في هذا السياق يمكن القول إن حركة غولن بدأت تعرض منعكساتٍ شبيهةً بمنعكسات الشيعة المعروفة بكونها مذهب الكاريزما الشخصية والمذهب السلطوي، وإن غولن عكس بروفيل الإمام المعصوم الذي يستند إلى الكاريزما الشخصية التي طورها على أساس نظرية الحق الإلهي التي أوجدتها الشيعة مقابل فكرة عصمة الأئمة، ومذهب الإجماع الذي يبرز عند السنة. بعبارةٍ أوضح ليس هناك فرقٌ مهمّ بين فهم الشيعة التقليدي للمهدي وبين فهم حركة غولن للمهدي في الأصل والأساس. وربما يكمن الاختلاف بينهما بكون المهدي لدى الشيعة يقابل شخصًا معينًا، وفي حركة غولن كأنه يشير إلى فتح الله غولن من حيث الصفات والمهامّ، والمهدية تشير إلى الحركة عامّة. بعبارةٍ أخرى يمكن القول إن غولن يتولى مهمّة المهدي، وحركة غولن تكون العين التي ترى بها المهدي، والأذن التي تسمع بها من خلال التجسيد المؤسساتي. ومن ثّم فإن الاختلافات بين فهم الحركة للمهدية وبين فهم الشيعة للمهدية اختلافاتٌ فردية واجتماعية.

ويمكن ربط فكرة المهدية لدى حركة غولن بالفرانكية، أو ما يعرف في تركيا بالسبتائية. ففي عام 1665 زعم رجل دين يهودي يدعى غزالي ناثان أن يوم القيامة قريب جدًّا، وأعلن سبتاي سوي من مواليد إزمير 1626 نفسه مهديًّا في فلسطين. ثم جمع سبتاي سوي عددًا كبيرًا من المريدين حوله في إزمير. يؤمن المريدون أن سبتاي سوي سوف يُنزل السلطان العثماني محمد الرابع من العرش، ويجلس مكانه، لكن السلطان يقول إنه سيقطع عنقه ما لم يتب ويدخل في الإسلام. في هذه الفترة تنتشر إشاعات على الشكل الآتي: "عيسى تغلب على الموت وهو معلق على الصليب، أما سبتاي سوي فقد رجح أن يسلم وينجو بنفسه من الموت". غير أنه لم يفسد التوقعات بقدوم المهدي/ المسيح فيراقب المريدون سوي مرةً أخرى، ويطورون نظامًا لاهوتيًا/ إلهيًا يناسب الوضع الجديد. في هذه الأثناء تظهر بعض طرق مذهب "الدونمة" الذي أسسه السبتائيون. وإحداها الفرانكية التي أسسها جاكوب فرانك (Frenk Yakup).

وقد أفلس جاكوب فرانك في دعواه، لكن التاريخ سجله باعتباره الشخص الذي لم يفقد على الإطلاق قدرته الكبيرة على الإقناع.

تصرف الفرانكيون كما يحلو لهم من دون أن يكترثوا للفهم الأخلاقي السائد في المجتمع الذي يعيشون فيه؛ لكونهم يؤمنون "بأن الذنوب تحفظ الإنسان"، فأبدوا سلوكًا يخالف أحكام التوراة على وجه الخصوص. وطريق التخلص من الطاقة السيئة في هذه الطريقة يمرّ من البقاء صامتًا من باب "crypsis" (التدبير والتقية). يعتقد الفرانكيون أن الوصول إلى الإيمان الحقيقي لا يتحقّق من دون انتهاك أحكام التوراة، وانتشر هذا الاعتقاد مع مرور الوقت إلى مجالات الحياة الأخرى، وفي مقدمتها المجال السياسي. يعتقد الفرانكيون الذي يحلمون بالاستيلاء على الصعيد العالمي استيلاء يمحو الماضي بجرّة قلم واحدة- أن الإنسانية ستُولَد من جديدٍ في الصفحة الطاهرة التي ستُفتَح في نهاية "القيامة" الّتي ستتحقق على أيديهم. ومِن ثَمّ فلابد من ارتكاب جميع الآثام والذنوب التي تعرف بأنها تؤدي إلى قيام الساعة في الكتب المقدسة حتى تغرق الأرض سريعًا فتُفتح صفحةٌ ناصعة البياض من أجل الإنسانية.

عقيدة الفرانكيين المنحرفة هذه تتطابق على وجه التقريب مع المنطق الذي يتباه تنظيم (فتو) في ارتكاب الجرائم، مثل تنفيذ محاولات انقلاب، وسرقة أسئلة الامتحانات، والقيام بالابتزاز من خلال التنصت، والتسجيلات الصوتية والمرئية السرية، والتخطيط لاغتيالات من شأنها أن تخلق الفوضى في البلاد، والتعاون مع المنظمات الإرهابية. وفقه حركة غولن كُوِّنَ بفهم يَشفِّر الحركة على أنها الأمل الوحيد لإنقاذ مستقبل الإسلام والبلد، وربما العالم كله، وإن لَمْ يُلاَحَظ هذا الأمر بما فيه الكفاية حتى وقت قريب، ففتحت الطريق بمقتضى هذا الفهم إلى تكوين وعي بهوية وانتماءٍ فرديٍّ واحديٍّ جوهريٍّ نرجسيٍّ يقصي كل القيم، ولا يقيم لها وزنًا، فقط من أجل تحقيق مصالحها.

لقد طوّر تنظيم (فتو) الإرهابي الذي يَعُدّ نفسه عظيمًا، ويعير اهتمامًا كبيرًا بتمييز نفسه عن المجموعات والجماعات الدينية الأخرى، ولا يتخلى أبدًا عن كبره- طوّر اعتقادًا يجيز له التضحية بالقيم المادية والمعنوية كافة، مثل الوطن والملّة والدين والدولة من أجل سلامته ومنفعته ومصلحته، ويبيح لأتباعه من جهةٍ أخرى أن يتصرفوا تصرفات لا تتوافق ومبادئ الإسلام، ولاسيّما في الأوساط والأوقات الحرجة، وتعطّل بالتمام الحساسيات الدينية والأخلاقية بغية الوصول بسلامٍ إلى نقطة الهدف، وقد أدّى هذا كله بإستراتيجية "إخفاء الهوية الحقيقية".

ويورد غولن في كتابه 'النور الخالد' عبارات مثيرةً للغاية حول مسألة "إخفاء الهوية الحقيقية"، فيرى أن الحديث الشريف "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَسْتَخْفِي الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ، كَمَا يَسْتَخْفِي الْمُنَافِقُ فِيكُمُ الْيَوْمَ..." يصور المنظر العامَ في تركيا اليوم، ويُؤَوِّله على النحو الآتي:

كيف كان المنافق يتصرف في تلك الفترة؟ ما هي الوسائل التي لجأ إليها حتى لا يشعر به أحد؟ والمؤمن كذلك، سيتصرف تمامًا مثل المنافق، ويؤدي عباداته سرًّا، ويخفي المكان

الذي يوجد فيه، وإلا فلن يفلح، ولن يتركوه سليمًا، ولن يحلو لهذا المستبد الشرير أن يرى بين ظهرانيه هذا المؤمن وأمثاله، فيُغْلِق أمامهم أماكن العمل، وبعض أقسام مؤسسات الدولة، وسيتم تحقيرهم وإذلالهم في المجتمع... نعم، إن لم تُستَخْلَص العبر من الأحداث التي جرت في فترة معينة؛ فسوف يأتي على المؤمن زمانٌ يُذَلّ فيه بسبب صلاته، ويُعاقب عليها كأنه فعل عيبًا، ويئنّ في ظل قوى الشر، وسيتجاوز المؤمن هذه الكارثة والمحنة بإخفاء نفسه.

هذا الفهم الذي يُعَبَّرُ عنه "بالتدبير" في حركة غولن يمكن تقييمه على أنه شراء لسياسة التقية المعروفة في تقليد الشيعة، ونقلها إلى عالم أهل السنة بتسمية بريئة. وبفضل سياسة التدبير– التقية هذه استطاعت الحركة أن تحشد قوةً متعددة الأبعاد، وأن تشكل كوادر تعمل في مؤسسات الدولة المفصلية زَمَانٌ يَسْتَخْفِي مثل القضاء والأمن على وجه الخصوص، وأن تجعل جميع الجماعات الأخرى خارج الصف بدون اهتمام، وقد خلق هذا الأمر امتعاضًا كبيرًا بين الجماعات الإسلامية الأخرى. هذا الضرب من التقية– على حدّ قول علي شريعتي– خاصٌّ "بالشيعة الصفوية". فالتقية لدى الشيعة الصفوية تعني الصمت أمام ظلم القوة الحاكمة وقمعها حتى يبني الشخص أو الجماعة نظامه، ويضمن سلامته، ولا يتعرض للأضرار والمضايقات.

يشكّل الدين الإسلامي أيضًا مادةً للتقية في حركة غولن؛ بل الإسلام -بالأحرى- هو التقية و/ أو القناع المعنوي الذي يستعمله زعيم الحركة أمام أتباعه في الطبقة الدنيا، فالفئة التي تتزعم الحركة تحدّث أتباعها في الطبقات السفلية عن الإسلام، وتستعمل الإسلام مادةً للتقية من أجل إخفاء نفسها. من جهةٍ أخرى يؤكّد التنظيم في أجهزة البثّ المفتوحة على الرأي العام أن الحركة ليست حركةً دينيةً، ويجري هذا التأكيد بمقتضى التقية أمام شرائح المجتمع المختلفة.

حركة غولن بما لديها من نظام لاهوتيّ هجين يملك إلى حدّ ما بنية شبيهة ببنية التنظيمات والطرق المعروفة في الكنيسة الكاثوليكية، مثل تنظيم أوبوس داي (عمل الرب)، وفرسان الهيكل، والرهبنة اليسوعية.

فالمتحدثون باسم الحركة يصرّحون للرأي العام بأن الحركة ليست حركةً أو جماعةً دينيةً، ومن جهةٍ أخرى يقولون لأتباع الحركة: إنهم قاموا بهذه التصريحات بما تقضيها التقية. فالتقية باختصار أداةٌ متعددة الطبقات والاستعمال لدى حركة غولنَ التي تملك آليةً تشبه ماكينة كذبٍ عملاقة.

والأمر الآخر الذي يستحق الذكر هو مسألة الرؤيا لدى حركة غولن، ومحاولتها إظهار الرؤيا مرجعًا في كل موضوع حرج على وجه التقريب. الرؤيا في الحقيقة عنصرٌ غامضٌ يحقق تهجين حركة غولن، وأحد الأسبابُ الرئيسة التي تكمن وراء التشديد المفرط على الرؤيا هو أن الحركة تحاول أن تخلق للفعاليات التي تقوم بها مصدر حجةٍ خاصًّا جدًّا، ومفعمًا بالأسرار، ومغلقًا في الوقت ذاته على المساءلة/ المناقشة.

يشكّل القرآن والسنة -كما هو معلوم- أمتن الحجج الدينية في التقليد الإسلامي، لكنّ هذين المصدرين وصلا إلينا نصوصًا لسانية، وصار تفسير النصوص وتأويلها موضوع الاختلاف على مرّ التاريخ. فالاختلاف ناجٌم من طبيعة النصوص من جانب، لكنه ينبع بالأكثر من المنهج الكلامي والاعتقادي الذي يتبناه المفسرون، وبما أن إزالة اختلافًات التأويل غير ممكنة على أرض الواقع فمن غير الممكن استعمال النصوص لتأسيس أحجيةٍ غير قابلة للجدل والنقاش. بقي أن القيام بالاستدلال بالآيات والأحاديث في أي موضوعٍ كان يتم تلقيه كأنه أمرٌ عاديٌّ، ولهذا السبب لا يبدو إقناع كتلٍ واسعةٍ بالأدلة التي تستند إلى النصوص أمرًا ممكنًا.

لا بد أن غولن اكتشف أنه لن يستطيع أن يتخطى صعوبة الحصول على الموالين المخلصين له إلا بتفعيل الرؤيا التي تُعَدّ طريقًا غامضًا زاخمًا بالأسرار والخفايا، غير أن جمع الحجج عبر الرؤيا له تداعيات جادةٌ جدًّا، من قبيل أنه يخلق تصوّرًا بأنه مرتبطٌ بالعالم الغيبي والميتافيزيقي، وكونه أمرًا خارقًا للعادة الاستثنائية، وخرق العادة هذه يكسب أصحاب الرؤيا كاريزما معنويةً، ويشرعن لهم العمل بالرؤيا على حد سواء. لكن علماء الكلام من أهل السنة لديهم قناعة عامة بأن الرؤيا ليست حجةً، كما أنها ليست وسيلةً يمكن الاعتماد عليها في الحصول على المعلومات. بالمقابل يرى الشيعة أن تجلي الإمام المعصوم في الرؤيا يحمل قيمة الحجة. وفي التقليد التصوّفي تشكل الرؤيا مصدر المعرفة والحكمة والوعظ والإرشاد والإنذار وما شابه ذلك. فالعديد من الزهاد والصوفيين وجّهوا حياتهم العملية تبعًا للرؤيا، وفي الطرق تُقيَّم الرؤيا على أنها جزء من سير السلوك. لقد وقفت حركة غولن في خطاباتها بعيدةً عن بنية التصوف والطرق الصوفية، لكنها استندت إلى التقليد الصوفي ولاسيّما في موضوع الرؤيا.

وحركة غولن بما لديها من نظام لاهوتيٍّ هجين يملك إلى حدّ ما بنيةً شبيهةً ببنية التنظيمات والطرق المعروفة في الكنيسة الكاثوليكية، مثل تنظيم أوبوس داي (عمل الرب)، وفرسان الهيكل، والرهبنة اليسوعية. ويبرز التشابه بشكل أكر في بنية تشكيلات الحركة وفعالياتها، فتنظيم أوبوس داي أُسِّس لتكوين كوادر من النخب الغنية التي تلقت تعليماً جيدًا لتدعم البابا خارج الفاتيكان من خلال حشد أصحاب العمل والمهن المخلصين للمذهب الكاثوليكي. يُعَدّ تنظيم أوبوس داي تنظيماً سريًّا يتكون جميع أعضائه من الكاثوليك أصحاب المهن، ويوجد في كل بلد كاردينال مسؤول عن التنظيم. وهوية البابا بحسب هذا التنظيم فوق الكنيسة، وفوق مقام البابوية.

وطريقة فرسان الهيكل التي أَسَّسها نبيلٌ فرنسي في بداية القرن الثاني عشر لحماية المسيحيين الصليبيين في القدس باعتبارها مجموعةً مكونةً من تسع شوفاليات- تملك بنيةً هرميةً متعددة الأطراف، مثل الأفندي الرئيس، ومجلس الشيوخ، والقادة المحليين/ الإقليميين، وقادة الشوفالييه، ورؤساء البيوت، والجاويش، والأغرار. هذه البنية تذكرنا بالبنية الهرمية التي تملكها حركة غولن؛ أي الأئمة، والإخوة الكبار، والأخوات الكبيرات، والطلبة (الشاكرد) المسؤولون عن البلدان والمناطق والمدن والولايات ومؤسسات الدولة المختلفة.

تتطابق حركة غولن إلى حدٍّ مهمٍّ مع طريقة الرهبنة اليسوعية القائمة في العالم الكاثوليكي في أمور، مثل بنية التنظيم، والبرامج التعليمية، والطرق المتبعة في تكوين الموارد البشرية، وفهم الطاعة المطلقة. يتربع "الرئيس العام" (الجنرال) في قمة البنية الإدارية لهذه الطريقة التي أَسَّسها أغناطيوس دي لويولا عام 1534، أما الكوادر التي تلي الرئيس العام فتتسلسل بحسب صلاحياتها ومسؤولياتها على الشكل الآتي: وكيل الرئيس العام، ونواب الممثلين، والمسؤولون عن الطريقة في الضواحي، وقسيسو المناطق (الرؤساء)، والمشرفون على البيوت. يستطيع أعضاء الطريقة أن يتأقلموا مع كل البنى المجتمعية، وأكبر استثمارات الطريقة تركز على الإنسان، أما الأهداف فتُصمَّم جميعًا لتكون أهدافًا طويلة الأمد. يخضع الذين يُقبَلون في الطريقة للتعلُّم والتدرّب لفترة طويلة. وتُطبَّق برامج تعليمية متميزة في مدارس الطريقة، أو في المدارس الخاصة التي تدعمها الطريقة، علماً أن الطلاب الذين يدرسون في هذه المدارس من الطلاب الفقراء، لكنهم يملكون قدرات ومؤهلات عالية. وبفضل هؤلاء الشباب الذين تلقوا تنشئةً جيدةً تتسلل الطريقة بين خصومها، أو إلى مؤسساتها، فتفسد بنيتها، وتحكم سيطرتها على النقاط الحساسة فيها.

لتوضيح فهم الطاعة لدى الطريقة اليسوعية تُستَعمل أقوال، مثل "الطاعة كالميت" أو "الطاعة العمياء"، فالشخص الذي يريد أن يكون مطيعًا بالمعنى الحقيقي بحسب اليسوعيين عليه أن يترك إرادته جانبًا، ويسلّم نفسه للإرادة الإلهية بوساطة الزعيم الروحاني. يُروَى أن أغناطيوس قال في إحدى تصريحاته ما يأتي: "رغم كل شيءٍ لا أتمنى أن أكون عائدًا لنفسي، بل لخالقي، ولمن يمثله. ينبغي أن أتحرك وأتوجه مثل قطعة من شمع العسل الذي يُعجَن في آلة العجن. ينبغي أن أرى نفسي مثل رجلٍ ميتٍ عديم الإرادة، أشبه بصليبٍ صغيرٍ أو عصا في يد

شيخ عجوز، يمكن نقله بسهولة من مكان إلى آخر، أو بشيءٍ يُوضع في مكانٍ بحيث يُستعمل على أفضل وجه، وهكذا ينبغي أن أكون دائمًا على استعدادٍ لأن يتم توجيهي، حتى تستخدمني الطريقة في أفضل شكلٍ تراه".

تملك بنية حركة غولن السرية صفات تشبه صفات الفرق الباطنية ونظام الدعوة الباطنية، فالإمامة على سبيل المثال تكون في مركز تعاليم الباطنية. يؤمن الباطنيون أن الأئمة بشرٌ خلقوا من التراب، ويتعرضون تمامًا مثل بقية الناس إلى الأمراض والعلل والمصائب والموت، ويصفون الأئمة في إطار التأويل الباطني بصفاتٍ مثل "يد الله" و"وجه الله". بالتوازي مع هذا الفهم نعتوا الأئمة بنعوتٍ من قبيل (الصراط المستقيم) و (الذكر الحكيم) و(القرآن الكريم)، وأسندوا إليهم امتيازات إلهية، كمحاسبة الناس يوم القيامة، وعملوا على ترسيخ هذا الإسناد بجملةٍ من المناقشات العقلية والنقلية. يقول أحد هذه النقاشات أن الإمام يرشد العالم كله لمعرفة الله. ومن ثَمَّ لا يمكن معرفة الله إلا بفضل الإمام.

تملك "الحجة" دورًا مهمًّا في نظام الدعوة الباطنية، والشخص الذي يحمل هذه الصفة يُسمَّى "حجة الإمام". يعطي الإمام أحيانًا مقامَي الحجة وكبير الدعاة لشخصٍ واحدٍ، ولكن في الفترات التي تتطلب السرية يُعيَّن شخصان مختلفان لهذين المقامين. في هذه الحال لا يُعرَف اسم الشخص الذي تسلّم مقام الحجة إلا الإمام، ويكون الإمام على صلةٍ قريبةٍ وعلاقةٍ قريبةٍ مع الحجة. الحجة يمثل المرتبة التي تلي الإمامة، ولا يستطيع الإمام أن يقيم حجته على جميع الناس الذين يعيشون في عهده؛ نظرًا لاتساع الكرة الأرضية، لهذا السبب يستوحي الإمام من الأبراج السماوية الاثني عشر، ويقسم الأرض إلى اثنتي عشرة منطقةٍ (جزيرة)، أو إلى سبعة أقاليم، بما يتوافق والأبراج السبعة، فيُعيِّن حجةً في كل منطقة، ولاحقًا في كل جزيرة. وبهذا الشكل يوجد في كل منطقةٍ وجزيرةٍ حجةٌ ولاحقٌ يدعوان الناس إلى الحق.

(اليد) في الدعوة الباطنية يمثّل الشخص الذي يثق فيه اللاحق. ويستشير اليدُ اللاحقَ في تسيير الدعوة، ويحلّ محلّه إذا اقتضت الحاجة؛ لذلك يجب أن تكون أعداد اليد مساوية لأعداد اللاحقين. أما الداعي فيأتي بمعنى المبشِّر المكلَّف بنشر الدعوة الباطنية من الناحية الظاهرية والباطنية، ويسمى أحيانًا "بالجناح". يقوم الدعاة بفعاليات التبشير في المناطق التي يُعيَّنون عليها، ويشكلون البنية التحتية المذهبية لنشر الحركة الباطنية في تلك المناطق. يكون الدعاة الذين أُنشِئُوا وسط برامج تعليمية صارمة على ارتباطٍ مباشر مع الإمام، لما لديهم من صلاحيات علمية، لكن ارتباط الداعي بالإمام مرتبط بمواقفه وأفعاله أمام الإمام ومقيدٌ باستسلامه المطلق له، فالداعي لا يمكنه على الإطلاق أن ينتقد تصرفات إمامه، ولا أن يبدي رأيًا يخالف رأيه؛ لأنّ كلّ تصرف يقوم به الإمام، وكل كلمةٍ يقولها مبنيّان على حكمة. والداعي قد لا يفهم هذه الحكمة، لذا عليه أن ينسب سبب هذا العجز إلى ما لديه من نقصٍ في الفهم والاستيعاب، لا إلى سخافة أقوال الإمام وأفعاله.

من المثير أن يتطابق شكل هذه العلاقة مع العلاقة القائمة بين الشيخ والمريد في التصوف. وهذه العبارات التي قالها المفسّر الصوفي نجم الدين داية (ت. 654ه/ 1256م) في تفسير سورة الكهف، التي تتناول قصة موسى عليه السلام مع الخَضر (18/ 60-82) لها علاقة بهذا الموضوع تحديدًا: "ومن إحدى آداب سير السلوك أن لا يعَترض المريد إطلاقًا على أقوال شيخه وأفعاله. يجب عليه أن لا يترك طاعة شيخه حتى وإن رأى في أقواله وأفعاله ما لا يمكن قبوله عقلًا وشرعًا... في حالات كهذه يجب أن لا يشجب شيخه ولا يفكر فيه بسوءٍ؛ بل على العكس يجب أن يفكر فيه بالخير، ويؤمن أن شيخه قد قام بأفعال صحيحة، وأنه لما حدد رأيًا حدده بصفة المجتهد. إنْ كان هناكً خطأ فعليه أن يقول: 'هذا الخطأ مني ومن قلة عقلي و/ أو قلة عملي'".

آراء غولن وتأويلاته المتعلقة ببعض كلمات القرآن ومفاهيمه من النوع الذي لا يمكن وصفه إلا بكلمة 'القبيح'.

يسير نظام عمل الدعوة الباطنية بحسب ما نقله العلماء من أمثال الغزالي (ت. 505هـ/ 1111م) ومحمد بن حسن الديلمي (ت. 711هـ/ 1311 [؟]م.) على النحو الآتي: 1-الزّرق والتفرس (النظر الدقيق): تمييز الشخص المناسب للدعوة الباطنية، وتحديد ميوله الدينية، وكيفية التصرف معه. 2-التأنيس: بناء علاقة صداقة مع المرشح، وكسب ثقته بموافقة ميوله الدينية. 3-التشكيك: تأمين دفع المرشح الذي كُسِبت ثقته إلى الشبهات من خلال إثارة فضوله ببعض الأسئلة التشكيكية. 4-التعليق (التأجيل أو التعقيل المشروط): التوثق من أن المرشح الذي ينتظر الأجوبة المطمئنة لن يبوح بهذه الأجوبة للآخرين، فيؤخذ منه اليمين على ذلك، ويتم وضعه تحت الانتظار. 5-الربط: بعد أداء المرشح اليمين على بقائه مخلصًا لقائد الباطنية، وربط ذلك بشرط مغَلَّظ كطلاق زوجته في حال نقضه هذا الوعد والعهد واليمين. 6-التدليس (الخداع): يُخَدَع المرشح باتهامّ العلماء المقبولون لدى الجميع في الباطنية. 7-التأسيس (تشكيل جوهر باطني): يُلقَّن المرشح تدريجيًّا بأفكار، من قبيل أن لكل ظاهر باطنًا، وأن الظاهر هو القشرة والباطن هو الجوهر. 8-الخَلْع: يتخلصّ فيه المرشح الذي بلغ مرتبة تلقي المعاني الباطنية للأحكام الدينية من مسؤولية الالتزام بالتكاليف الشرعية/ الظاهرية. 9-الانسلاخ: في هذه المرحلة الأخيرة ينسلخ المرشح من أسس العقائد المقبولة عند سواد المسلمين، ويُقْبَل في الباطنية.

وما من شكٍّ أن مشروع الحوار بين الأديان من أهم مؤشرات التهجين في لاهوتية حركة غولن. فغولن - الذي قال في مدخل رسالته إلى البابا جان بول الثاني خلال زيارته للفاتيكان عام 1998: "نجتمع اليوم هنا لنكون جزءًا من مهمّة المجلس البابوي من أجل الحوار بين الأديان الذي أطلقه جناب البابا بولس السادس، والذي لا يزال مستمرًّا. نرجو أن تتحقق هذه المهمّة. وقد جئنا إليكم بكثير من العجز وقليل من الجرأة لنقدّم لكم أكثر خدماتنا تواضعًا، في سبيل القيام بخدمتكم القيّمة هذه"- نفّذ فعّاليات كثيرة في عدد كبير من المناطق المختلفة

في العالم خدمةً لهذا المشروع. فمن جملة ما قام به؛ تنظيم المؤتمرات، والمحاضرات، والمنتديات، والنشاطات الفنية المختلفة، في سبيل تطوير العلاقات الثقافية بين الثقافات والأديان– في روسيا وآسيا الوسطى والقفقاس بواسطة مجلة DA، ومنصة أوراسيا للحوار. ودخلت الحركة بعد انتقال غولن إلى أمريكا على وجه الخصوص في هيكلة سريعة جدًّا في العالم الغربي عمومًا، وفي أمريكا وكندا على وجه الخصوص تحت أسماء مختلفة، كالمراكز الثقافية، ومعاهد الحوارِ بين الأديان، ومنتديات الرومي، وبلغ الأمر إلى حد تشكيل ما يزيد عن خمسين مجموعةً مختلفةً من حيث العقيدة والدين في الولايات الأمريكية المختلفة، إلى جانب الأموال الكبيرة التي أنفقتها الحركة إلى أصحاب الاختصاصات المشهورين ببحوثهم في موضوع الحوار بين الأديان والثقافات، واستكتابهم الكتب والمقالات في موضوع مفهوم غولن للحوار.

قامت حركة غولن بخدمةٍ تطوعيةٍ في التداخل الثقافي (Enculturation) لمشروع الحوار بين الأديان الذي يحمل سمةً الفاتيكان بكل جوانبها، ومفهوم التداخل الثقافي الذي أدرجه ج. ماسون في مهمّة الكنيسة الكاثوليكية، وتضمنه بيان البابا جان بول الثاني الذي نشره عام 1979 باسم "Catechasi Tradendae"، وإكسائه ماهية لاهوتية– يعني تحويل رسالة الإنجيل إلى خطاب ينسجم مع ثقافات الشعوب التي تعيش في البقاع المختلفة في العالم، ويأتي بمعنى أسلوبٌ تأمين الحوار والتفاهم بين أنظمة العقائد المختلفة بقيادة الكنيسة وإدارتها، وقد أدرج هذا الأسلوب بشكلٍ نظاميٍّ للمرة الأولى في جدول أعمال كنيسة الفاتيكان الثانية، وقد ورد في ملف "Ad Gentes" العبارة الآتية: "يجب على الكنائس المحلية تحديد التنوع الغني الذي تملكه الشعوب المختلفة في المنطقة، والاعتناء بها؛ لأن هذا الغنى قرضٌ ممنوحٌ من الله لجميع الشعوب غير المسيحية". كما عُبِّرَ في بيان "Redemptoris Missio" عن التداخل الثقافي بشكلٍ يعكس مقاربة استغلاله للثقافات الأخرى لصالح المسيحية، وبأن

التداخل الثقافي "تغيير أصلي من خلال تكامل قيم الثقافات المختلفة مع المسيحية، وإدخالٌ للمسيحية في الثقافات المختلفة".

وقد قدّم غولن بيانًا يرقى إلى تحريف بعض آيات القرآن الكريم في سبيل الحوار بين الأديان. وإن كان لا بد من تقديم مثال صارخ لهذا فهو تفسيره لقوله تعالى في الآية 17 من سورة مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؛ [أي اعتزلت أهلها والناس أجمعين، وتفرغت للعبادة] ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، فقال في جوابه عن سؤال 'من الروح التي نفخت المسيح في مريم؟':

"تذكر التفاسير كلها بأن الروح هنا هي جبريل عليه السلام، لكن الآية استعملت كلمة 'الروح'، وفي تعيين الروح اختلاف، وحدود الاحتمالات واسعةٌ تتجاوز الاختلاف، لتشمل روح سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلّم)، لأن سيدتنا مريم سيدة عفيفة نزيهة جدًّا، وينبغي بهذا الاعتبار أن لا يدخل إلى عينيها خيالٌ آخر. إضافةً إلى أنه (صلى الله عليه وسلّم) أشار إلى نكاحه بسيدتنا مريم، ومن هنا يمكن أن يكون "الروح" هي روح سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلّم)".

وقد حدد غولن لأتباعه جملةً من الإستراتيجيات والتكتيكات عن طريق التأويل الباطني لبعض الآيات، فقال في تأويل الآية 18 من سورة الكهف على سبيل المثال: "ولنحاول الآن أن ننظر بمنظور عين الطائر إلى إلهام هذه الآية من نكات [وفوائد] تتعلق بيومنا"، ويتابع فيقول: "سيكون في كل عصر من رجال الألبرن [الدراويش المجاهدين] في موقع أصحاب الكهف، وسيتوقف عندهم آخرون. وهؤلاء وإن لم يكونوا بمستوى أولئك [أصحاب الكهف] في المشاعر والفكر والإيمان؛ إلا أنهم سيستمرّون بحزم في السير على هذا الطريق حول الملاحظات نفسها، فينبغي عدم إهمال الناس المناوبين الذين يختارون حياة العيش في الكهوف، أو الذين يضطرون للعيش فيها، لأن الهجوم على المؤسسات التي يخدمونها، بل على بيوتهم أيضًا بعد فصل معين ربما سيكون موضوع حديث. لذلك ينبغي عليهم أن يتخذوا تدابيرهم، ويضعوا عند أبوابهم كلابًا مدربة، وينبغي لهذه الكلاب أن لا تكون كلابًا عاديةً، بل كلابًا رادعةً تتصدى لكل خطرٍ يمكن أن يأتي من الخارج، وتبثّ الرعب في قلوب الذين يريدونهم بسوء".

وآراء غولن وتأويلاته المتعلقة ببعض كلمات القرآن ومفاهيمه من النوع الذي لا يمكن وصفه إلا بكلمة 'القبيح'، إذ يتحدث في أحد مؤلفاته عن العرش والكرسي على سبيل المثال، فيقول: "أفضّل عدم الكلام في موضوع الكرسيّ والعرش ما لم يكن هناك استفهام؛ لأنني أتلقّى ذلك عن ربي، كأنها عِرْضُه. وكما أمسك عن الكلام عن الألبسة الداخلية لقريب خاصٍّ جدًّا؛ كذلك أمسك الكلام عن العرش والكرسي".

هذه العبارات القبيحة وَقَاحة وقلة أدب مع الله، ومؤشر لكبر وعجب يرتديان كسوة الإخلاص والتواضع والتقوى؛ لأن غولن في عباراته المذكورة يريد أن يقول: "أنا أعرف ماهية

العرش والكرسي، لكنني حفاظًا على عِرْض الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- أكتم ذلك عن الناس". ثم إن بيان سر العرش والكرسي بضرب المثل من الألبسة الداخلية باسم الحرمة القدسية لا تعدو سوى تحقير المقدّس وتزييفه. وغولن في الحقيقة يستثقل القيم القدسية في عباراته الكثيرة التي يطلقها على سبيل الشطحات في مجالسه ووعظه.

الخاتمة:

لا تشبه حركة (فتو) أو غولن الإرهابية بنى الجماعات الدينية الموجودة في تركيا، لا من حيث خصائصها، ولا من حيث ردود أفعالها (refleks). وهذه الحركة تستدعي للأذهان فرقة النزارية الإسماعيلية الباطنية التي تعرف أيضًا بفرقة الفدائيين والحشاشين في تاريخ المذاهب الإسلامية، وطريقة اليسوعيين وطريقة أوبوس داي في العالم المسيحي. والأصل في حركة غولن هو تحقيق مصالحها في كل الأحوال. وعندما يكون الوضع مخالفا لهذه المصالح يغيض خطاب التسامح والتواضع والأخوة وما شابهها من الأخلاق، ويحّل محلّها موقف التوتر والغضب والقسوة والعداء. ويمكن تجاهل مصلحة الأمة كلّها والتضحية بها في سبيل مصلحة الحركة، كالمواقف التي شهدناها منذ حادثة "أسطول مرمرة" المشؤومة. ويمكن الحديث أيضًا عن خاصية الوجوه المختلفة التي تظهر بها الحركة بما يقتضيه الزمان والمكان، فتنحني أو تظهر؛ كأنها تنحني للقوي، لكن يظهر عليها سلوك إجبار الآخرين وإخضاعهم عندما تمسك بالقوة والسلطة.

الحركة التقليدية تقوم منذ البداية على بنية سرّية. وتملك نظامًا لا يرحم. والآلية العامة التي تعتمدها الحركة مبنية على مبدأ الإخلاص والطاعة المطلقة لغولن. والشخص الذي يتخلّف عن الذهاب إلى مكان الوظيفة التي عُيِّن فيه في إطار النشاطات التي تُسمَّى بالخدمة، أو توجه بقرار شخصيٍّ منه إلى أداء عمل آخر- يجري عزله وحرمانه، ويتّهمه غولن وأعوانه بالخيانة، كما يجرِي تطليق زوجته، منه لأن زواجه في الأصل عقده مسؤولون في المستوى الأعلى لقيادة الحركة.

فالدخول إلى حركة غولن سهل، لكن الخروج منها شبه مستحيل، والانفصال من الجماعة كالسقوط في مستنقع آسن لا يمكن الطهارة منه مرةً أخرى؛ فالشخص الذي ينتسب لحركة غولن ويتولى وظيفةً في مجال معين تجب عليه طاعة جميع الأوامر، وإلا فإن عليه قبول العقوبة التي تفرض عليه. وسلطة الحركة الخبيثة مستمرّةٌ دائمة عند الشخص حتى الموت، وسيحسّ بهيمنة غولن على وجه الخصوص لازمةً باقيةً في عنقه، تمامًا كاستمرارية الديمقراطية.